

مذكرات يوجي

قصة التهمة



لقد كان زواج أخي الأكبر أنانتا أعز أمنيات أمي، وكنت أنصت إليها أحيانا وهي تعبر عن الإحساس الهندي المتأصل في قلبها باستمرار العائلة، قائلة: "آه، حينما أرى وجه زوجة أنانتا سأرى الجنة على الأرض!"

كنت في الحادية عشرة حينما عُقدت خطبة أنانتا. وكانت أمي تسهر بفرح على ترتيبات الزواج، في حين بقيت مع أبي لوحدنا بمنزل باريللي بشمال الهند حيث انتقل والدي بعد عامين في لاهور.

شاهدت من قبل فخامة طقوس الزواج عندما تزوجت شقيقتاي الكبيرتان روما وأوما، إلا أن الترتيبات بالنسبة لأنانتا كانت - بصفته أكبر الأبناء - بالغة الروعة. فكانت الأم تستقبل العدد الكبير من الأقارب وهم يقدون كل يوم إلى كلكتا من أماكن نائية، وتسهر على راحتهم في منزل فسيح حديث على ٥٠ شارع أمهرست. وكان كل شيء على أتم الاستعداد: فأطياب الوليمة والعرش البهيج الذي سيحمل الأخ إلى منزل العروس، وصفوف الأنوار الملونة، والفيلة، والجمال الهائلة الحجم المصنوعة من الورق المقوى، وجوقات الموسيقى الانكليزية والاسكتلندية والهندية، والفنانون المحترفون والكهنة للقيام بالمراسم العريقة.

وكنت مع أبي في ذروة الفرح نفكر باللحاق بالعائلة في الوقت الملائم بغية حضور الاحتفال. ولكن قبيل حلول ذلك اليوم العظيم تبدت لي رؤيا منذرة بالشؤم.

كان ذلك في باريللي في منتصف الليل، وأنا أرقد بجانب أبي في شرفة منزلنا حينما استيقظت على صوت رفرقة غريبة لبعوض يحوم حول الفراش. وقد انفرجت الستائر الرقيقة وأطل منها رسم أمي المحبوب وهمست بصوت خافت:

"أوقظ أباك! استقلا أول قطار في الساعة الرابعة صباحاً وأسرعاً إلى كلكتا إذا أردتما رؤيتي!"
ثم اختفى الطيف.

وصحت بأبي: "أبي، أبي! إن أمي تحتضر!"

أيقظه الرعب في نبراتي على الفور، ورحت أنشج الأخبار المشنومة. لكن الأب بدد هذا الخبر بطريقته الاعتيادية حيال موقف جديد، قائلا: "لا تلق بالآ إلى هواجسك. فوالدتك بخير، وإن وصلتنا أخبار سيئة ارتحلنا غدا."

قلت: "لن تغتفر لنفسك عدم السفر فوراً!" ثم دفعني الكرب لأن أضيف بمرارة "ولن أغفر لك ذلك أبداً".

وجاء الصباح الكئيب ببرقية تحمل كلمات قاطعة: "الأم مخطرة. تأجل الزواج. احضرا على الفور." ارتحلت مع أبي في حيرة وذهول، وقابلنا أحد أخواي في إحدى محطات التحويل في اللحظة التي كان قطار يتجه نحونا بسرعة خيالية. ومن فرط الألم والعذاب الباطني بزغ تصميم فجائي في فكري كي أرمي بنفسي فوق سكة الحديد، إذ شعرت أن لا قدرة لي على العيش في عالم عقيم بعد فقدان أمي التي كنت أحبها كأعز صديق على وجه الأرض. فعيناها السوداوان المواسيتان كانتا ملاذي الوحيد في حوادث الطفولة الطفيفة.

ووقفت لألقي على خالي سؤالاً أخيراً: "هل ما زالت أمي على قيد الحياة؟"

وأجاب خالي: "بالطبع إنها لا تزال حية ترزق!" إذ لم يفته قراءة اليأس الذي ارتسم على قسما وجهي. ولكنني بالكاد صدقت قوله.

وحيثما بلغنا منزل كلكتا كانت رهبة الموت المذهلة في انتظارنا، فسقطتُ فاقد الوعي تقريباً. وانقضت سنوات قبل أن يعرف قلبي العزاء. وعندما قرعتُ أبواب السماء بعزم ما بعده عزم استجابت الأم الإلهية إلى أنيني، وأتت كلماتها أخيراً بالشفاء التام لجراحي الدامية عندما قالت: "إنني أنا التي سهرتُ عليك حياة بعد حياة، في حنان أمهات كثيرات! أنظر إليّ وسترى العينين السوداوين الجميلتين اللتين تبحث عنهما!"

عدت مع أبي إلى باريللي إثر مراسيم الجنازة للأُم المحبوبة. وكنت أقوم مبكراً كل صباح بحج تذكاري مؤثر إلى شجرة الشولا الكبيرة التي كانت تظل البساط السندسي - الذهبي الناعم المنبسط أمام منزلنا. وغالبا ما كنت أتخيل الشجرة البيضاء وهي تنثر زهورها بولاء صادق فوق المذبح الأخضر. في تلك اللحظات كنت أمزج دموعي بقطرات الندى وأحيانا أرى أنواراً غريبة من غير هذا العالم تنبعث مع الفجر فتكتسحني نوبات شديدة من الحنين لله. وأحسست بقوة جبارة تجذبني صوب الهملايا.

زارنا في باريللي أحد أبناء عمي لدى عودته من رحلة إلى التلال المقدسة، وقد أصغيتُ باهتمام كبير إلى قصصه عن المقر الجبلي الشاهق الذي يقطنه اليوغيون والسواميون⁽¹⁾ فقلت له: "هيا نهرب إلى الهملايا!"

وسمع اقتراحي دواركا براساد، الأبن الأصغر لمالك منزل باريللي فأطلع أخي أنانتا – الذي كان قد أتى لرؤية والدي – على خطتي. وبدلاً من أن يقابل الأخ هذه الخطة غير العملية بابتسامة خفيفة فقد اتخذها ذريعة للسخرية مني، قائلاً:

"أين رداؤك البرتقالي اللون؟ إذ لا يمكنك أن تصبح سواميا بدونه!"

اهتز كياني بأسره لكلماته بكيفية يصعب تفسيرها. ومرت بخاطري صورة جلية لذاتي كمتوحد يجوب ربوع الهند، ربما في حياة ماضية. وعلى أية حال فقد أيقنت أن ارتدائي للثوب الذي يميّز سلك النساك العريق سيكون بالنسبة لي أمراً طبيعياً وفي منتهى البساطة.

كنت أتحدث ذات صباح مع دواركا حينما شعرت بمحبة الله تجتاح كياني بقوة غير عادية. كان رفيقي ينصت لبلاغتي الروحية بذهن مشتت، لكنني كنت أصغي إلى ذاتي بكل جوارحي.

وفررت بعد ظهر ذلك اليوم إلى نينيتال في سفح الهملايا. لكن أنانتا صمم على تعقبي وأكرهني على العودة حزيناً إلى باريللي. وكانت الزيارة الوحيدة التي سمح لي بها هي رحلة الفجر إلى شجرة الشولا، وقد ناح قلبي لفقدان الأمين: البشرية والإلهية.

الصدع الذي حل بالعائلة بوفاة أمي كان متعذراً رابعاً. فالأب لم يتزوج ثانية في الأربعين سنة التي عاشها بعد ذلك. وإذا كان يقوم بالدور الصعب للأب والأم معا في ذات الوقت، فقد أصبح أكثر انعطافاً وقرباً من قطيعه الصغير، يحل مشاكل الأسرة بهدوء وحكمة. وبعد ساعات العمل كان يخلد للسكينة كالناسك في خلوته يمارس الكريا يوغا بصفاء وهدوء. وبعد انتقال الوالدة بزمان طويل حاولت أن أطلب من مربية إنكليزية العناية بالشؤون المنزلية بغية توفير قسط من الراحة لوالدي، لكنه هز رأسه وخاطبني بنظرة بعيدة:

"الخدمة بالنسبة لي قد انتهت بوفاة والدتك، ولن أقبل خدمة من أية امرأة أخرى".

وبعد أربعة عشر شهراً من وفاة أمي علمت أنها تركت لي رسالة هامة دونها أنانتا الذي كان قرب فراشها. ومع أنها طلبت منه تسليمها لي بعد عام واحد من رحيلها إلا أن أخي تباطأ.

وعندما كان يستعد لمغادرة باريللي إلى كلكتا للزواج من الفتاة التي اختارتها له الأم^(٢)

استدعاني ذات مساء إلى جواره، وقد رنّت في صوته نغمة التسليم:

"موكندا، لم أكن أرغب في إطلاعك على أخبار غريبة خشية أن ألهب رغبتك في الفرار من المنزل. وعلى أية حال فأنت تهيم بحب الله، وعندما أعدتك مؤخراً من سفرك إلى الهملايا فقد قررت عدم إرجاء تعهدي الذي قطعت على نفسي". ثم ناولني أخي صندوقاً وسلمني رسالة من أمي، جاء فيها:

"التكن هذه الكلمات بركتي الختامية لك يا ولدي المحبوب موكندا. لقد حانت الساعة التي

ينبغي أن أقص عليك عدداً من الظواهر الخارقة التي حدثت منذ ولادتك.

"أولا كنتُ قد علمتُ بالطريق المقدر لك أن تسلكه حينما كنتَ لا تزال طفلاً بين ذراعي، وقد حملتك إذ ذاك إلى منزل معلمي في بنارس. وبينما كنت متوارية خلف حشد من التلاميذ كنت أرى بصعوبة وجه لاهيري مهاسيا وهو غارق التأمل العميق.

"وإذ كنتُ أربتُ على كتفك كنت أيضاً أتوسل إلى المعلم العظيم كي ينظر إليّ ويمنحني بركاته. وأمعت في الإلحاح الصامت حتى فتح القديس عينيه وأوماً إليّ كي أدنو منه، فأفسح الآخرون المجال. وانحنيت فوق القدمين المباركتين، فأجلسك لاهيري مهاسيا في حضنه ووضع يده على جبهتك إشارة إلى تعميديك روحياً، وقال:

"أيتها الأم الصغيرة: إن ابنك سيكون يوغيا، وكقطار روجي سينقل نفوساً عديدة إلى مملكة السماء."

"وثبَ قلبي فرحاً لأن أجد أمنيته الوجدانية قد تحققت على يد المعلم العليم. وكان قد أخبرني قبل مولدك بقليل أنك سوف تسير على دربه.

"بعد ذلك علمتُ وشقيقتك روما برويتك يا بني للنور العظيم، إذ شاهدناك من الغرفة المجاورة عديم الحركة وقد التمع وجهك الصغير ورنّ صوتك بالتصميم القاطع للاتلاق إلى جبال الهملايا بحثاً عن الله.

"ومنذ ذلك الوقت أدركتُ يا ولدي العزيز أن طريقك بعيدٌ عن الأطماع الدنيوية، وقد عزز ذلك الإدراك أبرز حوادث حياتي، وهي الحادثة التي تملي رسالتي هذه وأنا على فراش الموت: "لقد حصلت لي مقابلة مع أحد حكماء البنجاب. فبينما كانت أسرتنا تعيش في لاهور اندفع الخادم ذات صباح إلى الغرفة قائلاً:

"سيدتي هناك سادهو^(٣) غريب يقف بالباب ويصر على مقابلة أم موكوندا."

"ومستت هذه الكلمات شغاف نفسي فقامت على الفور للترحيب بالزائر المبجل، وحينما انحنيت عند قدميه أحسست أنني أمام أحد رجال الله الصادقين وقد خاطبني بقوله:

"أيتها الأم، إن الأسياذ العظام يريدونك أن تعلمي أن إقامتك على هذه الأرض لن تدوم طويلاً. وسيكون مرضك القادم هو الأخير^(٤).

"تلا ذلك صمت لم أحس خلاله بالخوف أو الارتباك، بل غمرني شعور من الابتهاج العظيم. ثم واصل حديثه قائلاً:

"إنك ستكونين الحارسة لتميمة فضية، ولن أعطيها لك اليوم، بل تصديقاً لقولي ستتجسم في يدك غداً أثناء الصلاة. وعليك أن تطلبي وأنت على فراش الموت من ابنك الأكبر أنانتا كي يحتفظ بالتميمة لعام واحد، ثم يسلمها بعد ذلك لابنك الثاني. وسوف يفهم موكوندا مغزى هذا الطلسم من السادة العظام، وينبغي أن يتسلمه حينما يكون قد قرر نبذ كل الطموحات الدنيوية والشروع في بحثه الحيوي الجاد عن الله. وبعد أن تظل التميمة معه لبضع سنوات وتؤدي

الهدف الذي صيغت من أجله ستختفي من تلقاء ذاتها وتعود إلى حيث أتت، حتى ولو أودعت في مكان سري لا يعرف أحد موضعه".

"أقدمت الزكاة^(٥) للقديس وانحنيت أمامه باحترام كبير فلم يقبل التقدمة لكنه ارتحل داعيا بالخير والبركة. وفي المساء عندما ثنيت يدي للتأمل تجسّمت تميمة فضية بين كفيّ تماما مثلما وعد السادهو، وقد تحسستها بلمسة باردة ناعمة. ولقد احتفظت بها بعناية كبيرة لأكثر من عامين، وها أنا أتركها الآن في عهدة أُنانتا. لا تحزن لرحيلي فمعلمي العظيم سيأخذني إلى الذراعين الكليتين. وداعا يا بني ولتحرسك الأم الكونية".

غمرتني شعلة من الاستنارة لامتلاك هذه التميمة التي أيقظت ذكريات نائمة. وكان هذا الطلسم العتيق والمستدير موشى بأحرف سنسكريتية، وقد أدركت أنه انتقل إليّ من معلمين لي في حيوات سابقة كانوا يوجّهون خطواتي بكيفية غير منظورة. ولا شك أن للطلسم معنى آخرا لا ينبغي إفشاؤه^(٦).

أما كيف اختفى الطلسم أخيرا في ظروف كنيية جدا من حياتي، وكيف كان فقدانه بشيرا بملاقة معلمي الروحي فلن أتطرق إليه في هذا الفصل.

وإذ كان الصبي الصغير موكدنا قد خاب في محاولة بلوغ الهملايا، لكنه كان ينطلق بعيدا كل يوم على أجنحة تمييمته.

المصدر: مذكرات يوغني: السيرة الذاتية

بقلم: برمهنا يوغاندا

ترجمة حديثة منقحة: محمود عباس مسعود

(١) كلمة السوامي هي سنسكريتية الأصل وتعني المتوحد مع الذات الإلهية (سوا).

(٢) لقد صمدت لتقلبات الزمن العادة الهندية في اختيار الآباء والأمهات شركاء العمر لأبنائهم. والنسبة المنوية للزيجات الهندية السعيدة في ارتفاع متزايد.

(٣) السادهو هو الذي يسلك طريق النسك والتدريب الروحي.

(٤) حينما تبينت من هذه الكلمات أن الأم تحققت من أن حياتها ستكون قصيرة أدركت لأول مرة السر من إسراعها في تزويج أُنانتا. ومع أنها ارتحلت قبل العرس إلا أن عاطفة الأمومة الطبيعية دفعتها لمشاهدة الطقوس على الأقل.

(٥) الزكاة: علامة تجليل تقليدية للسادهويين النساك.

(٦) صنّعت هذه التميمة من مادة أثيرية. ولما كانت بتكوينها سريعة الزوال فإن مثل هذه الأشياء تتلاشى في النهاية من هذا العالم.

كانت كلمات ترنيمة مقدسة أو (مانترا) منقوشة على الطلسم. ولم يتم فحص قدرات الصوت وكلام البشر بدقة مثلما حدث في الهند. والاهتزاز الذي يصدر عن كلمة (أوم) المتردد داخل الكون (الكلمة أو صوت مياه كثيرة في الإنجيل) له ثلاثة مظاهر هي الخلق والحفظ والإبادة (كما ورد في أحد أسفار الهندوس المقدسة المسمى تاتريا أوبانيشاد (٨:١)). وفي كل وقت يتلفظ فيه الإنسان بكلمة ما فإنه يحدث إحدى المزايا الثلاث المذكورة. وهذا هو الأساس الحقيقي للوصية المقدسة التي تأمر الإنسان بقول الصدق.

وللمانترا السنسكريتية المنقوشة على التميمة قوة روحية ناعمة حينما تُنطق نطقا صحيحا ودقيقا. والأبجدية السنسكريتية المكونة بكيفية مثالية تتألف من خمسين حرفا يحمل كل منها لفظا ثابتا لا يتغير. وقد كتب جورج برناردشو مقالا حكيما وطريفا في نفس الوقت عن القصور الصوتي للأبجدية الانكليزية التي تستند أصلا إلى اللاتينية والتي يجهد فيها ستة وعشرون حرفا دون نجاح في

حمل عبء الصوت. ويقسوته المعتادة قال: "إن كان إدخال أبجدية إنكليزية للغة الإنكليزية من شأنه أن يثير حربا أهلية... فلن أحقد على ذلك". ويحث المستر شو على استخدام أبجدية جديدة ذات اثنين وأربعين حرفا. ومثل هذه الأبجدية سوف تقترب من الكمال الصوتي للسنسكريتية التي يحول استخدامها لخمسين حرفا دون الخطأ في النطق.

واكتشاف الأختام في وادي الاندوس يدفع كثيرا من الحكماء إلى أن يهجروا النظرية القائلة بأن الهند استعارت أبجديتها السنسكريتية من مصادر سامية. والتنقيب الحديث في عدة مدن هندية عظيمة في موهنجو - دارو وهاربا يقدم الدليل على ثقافة عالية "لا بد أن يكون لها تاريخ طويل سابق فوق تربة الهند ترجع بنا إلى عصر لا يمكن إلا أن يكون محلا للتحمين الغامض. " (سير جون مارشال في كتابه موهنجو - دارو ومدنية الهندوس نشر سنة ١٩٣١). فإذا كانت النظرية الهندية صحيحة لوجود الإنسان المتحضر منذ آمام بعيدة على هذا الكوكب الأرضي يمكن عندئذ تفسير السبب من كون اللغة السنسكريتية من أقدم لغات العالم على الإطلاق وأكملها. وفي هذا الصدد يقول السير وليم جونز مؤسس الجمعية الآسيوية: "كيفما كان تقادم عهد اللغة السنسكريتية فإنها ذات تكوين عجيب، وهي أكثر اكتمالا وكمالا من الإغريقية وأغزر من اللاتينية، وأنقى من الاثنتين معا." وتقرر دائرة المعارف الأمريكية ما يلي: "منذ إحياء النهضة العلمية لم يحدث في تاريخ الثقافة ما هو أبعد أثرا من اكتشاف السنسكريتية (بواسطة علماء الغرب)، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. فعلم اللغة وعلم قواعد اللغة المقارن وعلم الأساطير المقارن وعلم الأديان... هذه العلوم إما أنها تدين بكيانها لاكتشاف السنسكريتية أو أنها تأثرت كثيرا بدراساتها."